برغبتي في الخلاص من الم كوني مختلفا ، ادركت انني كنت اخرج من صيغة المضارع في قواعد روحي .

لدى عودتي الى بيروت في شتاء ١٩٧٩ ، كنت آنذاك ازور من جديد قطعة من فلسطين في لبنان ، واحيا من جديد اختبارا كانت له قيمة مركزية مهمة في حياتي . واردت ايضا ان ارى اين ينطبق مكاني ، عند هذه المرحلة الحاسمة من تحولي الذاتي ، في امة فصلت عنها جغرافيا هذه السنين العشرين الماضية ، ولماذا بقيت هذه الامة ، على نحو لا يصدق بما لها من موارد قليلة ظاهريا ورغم تكرار الانقضاضات على حياتها واوصالها . واردت ان ارى أيا من اقربائي واصدقائي بقي على قيد الحياة . واردت ان اطالب باسترداد ملكية جزء من ماضي في بيروت ، وهو ماض ادرك ان سكونه المتجهم قد مهد الطريق للحماسة التي تميز هوية تلك الجيل من الفلسطينيين الذي جاء بعد جيلي.واخيرااردت ان ارى متى،في اي يوم قد يأتي وقد لايأتي، سوف ننبش جميع الالعاب،جميع الممتلكات غير الملموسة،التي تركناها في عليات وطننا. وجادلت رومنطيقيا باننني ربما اذ ادخل نفسي في محيط فليسطيني صرف حيث يعقد الناس صفقات يومية مع التاريخ،فان نار فلسطين الخلاقة ستغمرني،وفكرت انني ربما استطعت ، والصورة تمارس سحرا غريبا على ذهني ، ان ألمس فحسب طفلا من تل الزعتر ، نجا من الاعمال الوحشية البربرية التي انزلت في مخيم اللاجئين ذاك في ١٩٧٦ ـ المسه باصابعي الهشة التي لا تفعل اكثر من ان تضرب المفاتيح الخرساء لالة كاتبة كل يوم ، وسأستمد من اللمسة سحرا من النوع الذي سيضيف معنى الى توافه عملي في الولايات المتحدة . وفي وقت ما سأعرف لماذا ، من بين جميع الأشياء التي تقوم في علاقة حيوية متبادلة مع ثقافتنا ، قد اقحم شيء كرشيش الكلاشينكوف ، المستورد من روسيا ، نفسه في ميثولوجية حياتنا اليومية وشعرنا وفولكلورنا ورقصنا .

بيد انه كان ثمة شيء اكثر من النار الخلاقة والسحر في اللمسة المستمدة من بقاء طفل من تل الزعتر في زيارتي الى امتنا في المنفى ، بعد عشرين سنة من الغياب عنها .

اصل الى بيروت في يوم بارد من ايام شتاء ١٩٧٩ ، وجراح المدينة من الحرب الاهلية واشتباكاتها الطبقية لا تزال دامية وغير مندملة . ويلتقيني عند الطائرة فلسطيني متوسط العمر من « الحركة » يعتمر قبعة صوفية روسية . ويقول : « انا ابو كريم » .

لحظتي الاولى هنا واختبار هبوب نفحة من فلسطين « التي بقيت في لبنان » هما عميقا العاطفة . هذا فلسطيني حقيقي ، باسم مثل ابو كريم ، يتكلم بلهجة فلسطينية حقيقية ، واقفا هناك على الطريق المسفلتة ، مبتسما ومادا يده لاصافحها . وحبست ما انا متأكد انه دفق من الدموع . واقول ، علي ان اضبط نفسي ، فكيف سيكون رد فعلي للقاءات تنطوي على شحنات عاطفية اكبر ، ولزيارة مخيم لاجئي برج البراجنة من جديد حيث ترعرعت ، وجميع المخيمات الاخرى في لبنان ، التي هي مصدر لقدر كبير من الطاقة المعقدة في فلسطينيتنا وتاريخنا ؟

ونتعانق انا وابو كريم ويقبل واحدنا الاخر على الوجنتين كما هي العادة في ثقافتنا . انه يبتسم لي بكثير من الدفء ويتمتم مكررا « اهلا ، اهلا ، اهلا بك يا اخ » .

داخل المطار ، وراء حواجز الجمرك والهجرة ، هناك مئات من اللبنانيين العرب ينتظرون